الدعاء بطول الأجل

"بحث علمي"

بندر بن فهد الايداء

BandrALAyda@

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسوله الأمين . . . . أما بعد :

هذا بحث يسير في مسألة الدعاء بطول الأجل حاولت فيه تجلية المسألة بنصوصها وكلام أهل العلم عليها وأسأل الله أن يجعل هذا البحث نافعاً لي ولمن قرأه ونشره وأن يكون لنا ذخيرة يوم نلقاه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم آمين

فأقول مستعيناً بالله :

اختلف أهل العلم في جواز الدعاء بطول العمر فمنهم من كرهه ومنهم أجازه وهذا البحث المقتضب هو عرض لأدلة القائلين بكلى القولين وعلى ماذا استدلوا ومناقشة لتلك الأدلة وشيئاً من فقهها وعرض للقول الراجح بإذن الله .

وقبل أن أحرر هذه المسألة سأنقل كلاماً بالغ الأهمية وله علاقة في فهم النصوص والجمع بينها وله علاقة بموضوعنا عن الإمام الألباني وعن محقق رسالة " إفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه " للسيوطي قال الأخير ص٢٧ :

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " **من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله ليصل رحمه** " أخرجه البخاري (٥٩٨٥) وأخرجه أيضاً في الأدب المفرد : باب صلة الرحم تزيد في العمر . ، وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " **من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه** " أخرجه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧) . وقد يتوهم أنه هذه النصوص تعارض ما جاءت به الأدلة الأخرى من القرآن كقوله تعالى **{ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}** ومن السنة حديث عبد الله بن مسعود **قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفةً ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويُؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد . فوالله الذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)** رواه البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣) وحديث حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : " **يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول :يا رب أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان ،**

فيقول : أي رب أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص " رواه مسلم (٢٦٤٤) .

فصل : في كلام أهل العلم في مسألة زيادة العمر ونقصه وهل هي مجازية أم حقيقية

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم (٣٣٠/١٦، ٣٣١) :

قوله صلى الله عليه وسلم "**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه** " ينسأ مهموز أي : يؤخر والأثر الأجل لأنه تابع للحياة في أثرها وبسط الرزق توسيعه وكثرته وقيل البركة فيه وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص **{ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون }** وأجاب العلماء بأجوبة : الصحيح منها : **الأول** : أن هذه الزيادة بالبركة في عمره والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها من الضياع في غير ذلك .

الثاني : أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون وقد علم سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك وهو في معنى قوله تعالى **{ يمحو الله ما يشاء ويثبت }** فيه النسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره ولا زيادة بل هي مستحيلة وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة وهو مراد الحديث

الثالث : أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده فكأنه لم يمت حكاه القاضي وهو ضعيف أو باطل والله أعلم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى (٥١٦/٨، ٥١٧) : وقد سئل رحمه الله عن المقتول : هل مات بأجله أم قطع القاتل عنه أجله ؟ _ فأجاب :

المقتول كغيره من الموتى لا يموت أحد قبل أجله ولا يتأخر أحد عن أجله بل سائر الحيوان والأشجار لها آجال لا تتقدم ولا تتأخر فإن أجل الشيء هو نهاية عمره وعمره مدة بقائه فالعمر مدة البقاء والأجل نهاية العمر بالانقضاء ثم قال والأجل أجلان : أجل مطلق " يعلمه الله " وأجل مقيد . وبهذا يتبين معنى قوله صلى الله عليه وسلم " **من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه** " فإن الله أمر الملك أن يكتب له أجلاً وقال : إن وصل رحمه زدته كذا وكذا والملك لا يعلم أيزداد أم لا ؟ لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر . آه بتصرف

وقال رحمه الله (٥٤٠/٨) : وقد سئل عن الرزق هل يزيد أو ينقص ؟ _ فأجاب :

الرزق نوعان :

الأول : ما علمه الله أن يرزقه فهذا لا يتغير .

الثاني : ما كتبه الله وأعلم به الملائكة فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب فإن العبد يأمر الله الملائكة أن تكتب له رزقاً وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " **من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه** " وكذلك عمر داود زاد ستين سنة فجعله الله مائة بعد أن كان أربعين _

رواه الترمذي وغيره ـ ومن هذا الباب قول عمر " **اللهم إن كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت**"

قال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (٢٣٨) :

قالوا رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " **صلة الرحم تزيد في العمر** " والله تبارك وتعالى يقول **{ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون }** قالوا : فكيف تزيد صلة الرحم في أجل لا يتأخر ولا يتقدم ؟

قال أبو محمد : ونحن نقول إن الزيادة في العمر تكون بمعنيين :

الأول : السعة والزيادة في الرزق وعافية البدن .

الثاني : أن الله تعالى يكتب أجل عبده عنده مائة سنة ويجعل بنيته وتركيبه وهيئته لتعمير ثمانين سنة فإذا وصل رحمه زاد الله تعالى في ذلك التركيب وفي تلك البنيه ووصل ذلك النقص فعاش عشرين أخرى حتى يبلغ المائة وهي الأجل الذي لا يستأخر عنه ولا يتقدم . آه بتصرف

قال أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب (٢٧٥/١) :

هذا حديث صحيح ويعارضه ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " **ثم يؤمر الملك بأربع كلمات رزقه وعمله** " وفي رواية " وأجله وشقي أو سعيد " وفي رواية حذيفة بن أسيد " **فلا يزاد عليه ولا ينقص** " والجمع بين الخبرين أن يقال :

إن الله إذا أراد أن يخلق النسمة جعل أجلها إن برت والديها كذا وكذا وإن لم تبر والديها كذا وكذا دون ذلك وإن عملت كذا حرمت كذا وإن لم تعمله رزقت كذا ويكون ذلك مما يكتب في الصحيفة التي لا يزاد ولا ينقص ومثل ذلك " **لا يرد القضاء إلا الدعاء** " رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٥٦٤) ، يقال : إن أراد الله أن يخلق النسمة قال : إن كان منها الدعاء رد عنها كذا وكذا وإن لم يكن منها الدعاء نزل بها كذا وكذا .

قال أبو جعفر الطحاوي في مشكل الآثار (٨١/٨، ٨٢) بعد حديث أنس :

فقال قائل : فكيف تقبلون هذا وتضيفونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تروون عنه أن الله عز وجل إذا أراد أن يخلق نسمة أمر الملك بأربع كلمات : " **رزقها أجلها ، عملها شقي أو سعيد** " وفي حديث ابن مسعود وفي حديث حذيفة بن أسيد مثل ذلك زيادة عليه وهي " **فلا يزاد على ذلك ولا ينقص منه** ؟ وهذا اختلاف شديد فكان جوابنا له في ذلك بتوفيق من الله عز وجل وعونه : أن هذا مما لا اختلاف فيه إذ كان يحتمل أن يكون الله عز وجل إذا أراد أن يخلق النسمة جعل أجلها إن برت كذا وإن لم تبر كذا لما هو دون ذلك وإن كان منها الدعاء رد عنها كذلك وإن لم يكن منها الدعاء نزل بها كذا وإن عملت كذا حرمت كذا وإن لم تعمله رزقت كذا ويكون ذلك مما يثبت في الصحيفة التي لا يزداد على ما فيها ولا ينقص منه وفي ذلك بحمد الله التئام هذه الآثار وانتفاء التضاد عنها والله عز وجل نسأله التوفيق .

قال الحافظ في الفتح (٤٢٩/١٠) :

" **في أثره** " أي : في أجله وسمي الأجل أثراً لأن يتبع العمر قال زهير :

والمرء ما عاش ممدود له أمل ..... لا ينقضي العمر حتى ينتهي الأثر

وأصله في من أثر مشية الأرض فإن من مات لا يبقى له حركة فلا يبقى لقدمه في الأرض أثر وقال ابن المتين : ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى { **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** } والجمع بينهما من وجهين :

الأول : أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة وصيانته عن تضييعه في غير ذلك ومثل هذا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم تقاصر أعمار أمته _ **جاء هذا من قوله صلى الله عليه وسلم " أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك "(حسن صحيح) المشكاة (٥٢٨٠) الصحيحة ٧٥٧** _ بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه الله ليلة القدر وحاصله أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل فكأنه لم يمت ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده والصدقة الجارية عليه والخلف الصالح وسيأتي مزيد لذلك في كتاب القدر إن شاء الله تعالى .

الثاني : أن الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر أما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى كأن يقال للملك مثلاً : إن عمر فلان مائة مثلاً إن وصل رحمه وستون إن قطعها وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع ، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص وإليه الإشارة بقوله { **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** } فالمحو والإثبات لما في علم الملك وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه البتة ويقال له القضاء المبرم ويقال للأول القضاء المطلق ، والوجه الأول : أليق بلفظ حديث الباب فإن الأثر ما يتبع الشيء فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور .

وقال الطيبي : الوجه الأول أظهر وعليه يشير كلام صاحب "الفائق" قال : يجوز أن يكون المعنى أن الله يبقي أثر واصل الرحم في الدنيا طويلا فلا يضمحل سريعاً كما يضمحل أثر قاطع الرحم ولما أنشد أبو تمام قوله في بعض المراثي :

توفيت الآمال بعد محمد

وأصبح في شغل عن السفر السفر

قال له أبو دولف : لم يمت من قيل فيه هذا الشعر ومن هذه المادة قول الخليل عليه السلام { **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** } .

وقال الحافظ أيضا: وجزم ابن فورك بأن المراد بزيادة العمر فض الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله وقال غيره : في أعم من ذلك وفي وجود البركة في رزقه وعلمه ونحو ذلك .

وقال رحمه الله (٤٩٧/١١) :

وأن الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل وأن الذي يجوز عليه التأخير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي فيقع فيه المحو والإثبات كزيادة في العمر والنقص وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله .

قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٣٤١٦) :

ولا يعارض هذا ــ يعني الحديث ــ **{ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون }** لأن المراد بالبسط والتأخير هنا البسط في الكيف لا في الكم أو أن الخبر صدر في معرض الحث على الصلة بطريق المبالغة أو أنه يكتب في بطن أمه أن وصل رحمه فرزقه وأجله كذا وإن لم يصل فكذا .

قال المباركفوري رحمه الله في التحفة (٩٧/٦) :

والمعنى أنها سبب لتأخير وموجب لزيادة العمر وقيل باعث دوام واستمرار في النسل والمعنى أن يمن الصلة يفضي إلى ذلك . وقال في اللمعات : والمراد بتأخير الأجل بالصلة إما حصول البركة والتوفيق في العمل وعدم ضياعه فكأنه زاد أو بمعنى أنه سبب لبقاء ذكره الجميل بعده أو وجود الذرية الصالحة والتحقيق أنها سبب لزيادة عمره كسائر أسباب العالم . فمن أراد الله تعالى زيادة عمره وفقه لصلة الأرحام والزيادة إنما هو بحسب الظاهر بالنسبة إلى الخلق وأما في علم الله فلا زيادة ولا نقصان وهو وجه الجمع بين قوله صلى الله عليه وسلم " جف القلم بما هو كائن " ــ رواه أحمد ــ وقوله تعالى **{ يمحو الله ما يشاء ويثبت }** .

وقال رحمه الله (٢٨٩/٦، ٢٩٠) :

قال تعالى **{ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب }** وقال تعالى **{ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب }** وذكر في الكشاف أنه لا يطول عمر الإنسان ولا يقصر إلا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح إن لم يحج فلا أو يغز فعمره أربعون سنة وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر ، وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعين فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون **وقيل معناه** : أنه إذا بر لا يضيع عمره فكأنه زاد **وقيل** : قدر أعمال البر سبباً لطول العمر كما قدر الدعاء سبباً لرد البلاء فالدعاء للوالدين وبقية الأرحام يزيد في العمر ، إما بمعنى يبارك في عمره فيمد له في الزمن القليل من الأعمال الصالحة ما لا يتيسر لغيره من العمل الكثير فالزيادة مجازية لأنه يستحيل في الآجال الزيادة الحقيقية .

قال الطيبي : إعلم أن الله تعالى إذا علم أن زيداً يموت سنة خمس مائة استحال أن يموت قبلها أو بعدها فاستحال أن تكون الآجال التي عليها علم الله تزيد أو تنقص فتعين تأويل الزيادة أنها بالنسبة إلى ملك ا لموت أو غيره ممن وكل بقبض الأرواح وأمره بالقبض بعد آجال محدودة فإنه تعالى بعد أن يأمر بذلك أو يثبت في اللوح المحفوظ ينقص منه أو يزيد على ما سبق علمه في كل شيء وهو بمعنى قوله **{ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب }** وعلى ما ذكر يحمل قوله عز وجل **{ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده }** فالإشارة بالأجل الأول إلى ما في اللوح المحفوظ وما عند ملك الموت وأعوانه ،وبالأجل الثاني إلى ما في قوله تعالى **{ وعنده أم الكتاب }** وقوله تعالى **{ إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون }** والحاصل أن القضاء المعلق يتغير وأما القضاء المبرم فلا يبدل ولا يغير . والله أعلم

وقال الإمام الألباني رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (ص ٤٠) :

قال البخاري : باب " صلة الرحم تزيد في العمر " وساق حديث أنس رضي الله عنه فقال الألباني :

قلت : الحديث على ظاهره أي : أن الله جعل بحكمته صلة الرحم سبباً شرعياً لطول العمر وكذلك حسن الخلق وحسن الجوار كما في بعض الأحاديث الصحيحة ولا ينافي ذلك ما هو معلوم من الدين بالضرورة أن العمر مقطوع به ، لأن

هذا بالنظر للخاتمة تماماً كالسعادة والشقاوة فهما مقطوعتان بالنسبة للأفراد فشقي أو سعيد فمن المقطوع به أن السعادة والشقاوة منوطتان بالأسباب شرعاً كما قال صلى الله عليه وسلم " **اعملوا فكل ميسر لما خلق له فمن كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة** " ثم قرأ { **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**} فكما أن الإيمان يزيد وينقص وزيادته الطاعة ونقصانه المعصية وأن ذلك لا ينافي ما كتب في اللوح المحفوظ فكذلك العمر يزيد وينقص بالنظر إلى الأسباب فهو لا ينافي ما كتب في اللوح أيضاً فتأمل هذا فإنه مهم جداً في حل مشاكل كثيرة ولهذا جاء في الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة الدعاء بطول العمر آه .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٥١٢/٣) :

قوله {**وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره** } أي : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول {**وما ينقص من عمره** }الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس . **قال ابن جرير** : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي ونصف ثوب آخر ، وروي من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى {**وما يعمر ... الآية** يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ولكن ينتهي إلى ا لكتاب الذي كتبت له فذلك قوله {**ولا ينقص من عمره ... الآية** يقول : كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه {**ولا ينقص من عمره إلا في كتاب** } قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

وقال عبد الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد {**وما يعمر .... الآية** أي : في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ **وقال بعضهم** : بل معناه {**وما يعمر ... الآية** أي ما يكتب في الأجل {**ولا ينقص من عمره**} وهو ذهابه قليلاً قليلاً ، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر وجمعة بعد جمعة ويوما بعد يوم وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله في كتابه نقله ابن جرير عن أبي مالك وإليه ذهب السدي وعطاء الخراساني واختار ابن جرير الأول وهو كما قال .

قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٣٦٠/١٧) :

سماه معمراً بما هو صائر إليه ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس {**وما يعمر ..... الآية** أي : إلا كتب عمره كم هو سنة كم هو شهر كم هو يوم كم هو ساعة ثم يكتب في كتاب آخر : نقص من عمره يوم نقص شهر نقص سنة حتى يستوفي أجله ، **وقال سعيد بن جبير أيضاً** : فما مضى من أجله فهو النقصان وما يستقبل فهو الذي يعمّره فالهاء على

هذا للمعمّر **وعن سعيد أيضا** : يكتب عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب في أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان حتى يأتي على آخره

وقيل : إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع وتسعين إن عصى فأيهما بلغ فهو في كتاب وهو مثل قوله صلى الله عليه وسلم "**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه** " أي : أنه يكتب في اللوح المحفوظ :

عمر فلان كذا سنة فإن وصل رحمه زيد في عمره كذا سنة ، فبين ذلك في موضع آخر من اللوح المحفوظ أنه سيصل رحمه فمن اطلع على الأول دون الثاني ظن زيادة أو نقصان .

قال الشوكاني في فتح القدير (٤٥١/٤) :

قوله " وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره " أي ما يطول عمر احد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب أي في اللوح المحفوظ .

قال السعدي رحمه الله في تفسيره (ص ٨٠٦) :

قوله **{وما يعمر من معمر .... الآية** : أي عمر الذي كان معمراً عمراً طويلاً **{إلا}** بعلمه تعالى أو : وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذكر أنها أسباب قصر العمر **والمعنى** : أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى وقد أثبت ذلك في كتاب حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى في سورة نوح { ويؤخركم إلى أجل مسمى } (٣٨٣/٤) :

أي يمد أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم وقد يستدل بهذه الآية من يقول إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث " **صلة الرحم تزيد في العمر** "

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٩٤) :

أي يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي قدره لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان . **وقيل** : التأخير بمعنى البركة في أعمارهم إن آمنوا وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا .

قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم .... آه

وبعد أن فهمنا طريقة الجمع بين النصوص التي ظاهرها التعارض نأتي إلى مسألة الدعاء بطول العمر بشيء من المناقشة اليسيرة :

استدل القائلون بالجواز بما أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات قال رحمه الله :

باب " دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله "

قال البخاري رحمه الله : حدثنا عبد الله بن أبي الأسود حدثنا حرميّ حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قالت أمي : يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له قال " **اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته** "

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح (٣٥٥/١٤) :

ذكر الحديث في عدة أبواب وليس في شيء منها ذكر العمر **فقال بعض الشراح** : مطابقة الحديث للترجمة أن الدعاء بكثرة الولد يستلزم حصول طول العمر وتعقب بأنه لا ملازمة بينهما إلا بنوع من المجاز بأن يراد أن كثرة الولد في العادة تستدعي بقاء ذكْر الوالد ما بقي أولاده فكأنه حيّ ، **والأولى في الجواب** : أنه أشار كعادته إلى ما ورد في بعض طرقه فأخرج في الأدب المفرد من وجه أخر عن أنس قال : قالت أم سليم ــ وهي أم أنس ــ يا رسول الله : خويدمك ألا تدعو له ؟ فقال " **اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته واغفر له**"

فأما كثرة ولده وماله فوقع عند مسلم " .... قال أنس : فوالله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة اليوم .

وأما طول عمر أنس فقد ثبت في الصحيح أن كان في الهجرة ابن تسع سنين وكان وفاته سنة إحدى وتسعين فيما قيل وقيل : سنة ثلاث وله مائة وثلاث سنين قاله خليفة وهو المعتمد ، وأكثر ما قيل في سنّه أنه بلغ مائة وسبع سنين وأقل ما قيل فيه تسعاً وتسعين سنه . آه

وقال أبو الحسن علي بن خلف المشهور بابن بطال في شرحه على البخاري على هذا الحديث (١٠٦/١٠) :

إن قائل قائل : كيف ترجم البخاري في هذا الحديث باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر وإنما في الحديث " اللهم أكثر ماله وولده " وليس فيه وطوّل عمره ؟

الجواب : يحتمل أن يكون ذلك من دليل الحديث من موضعين :

الأول : أن دعوته صلى الله عليه وسلم له بالكثرة يدل أن ذلك لا يكون إلا في كثير من السنين فدعاؤه له بكثرة الولد دعاء له بطول العمر .

الثاني : قوله عليه الصلاة والسلام " وبارك له فيما أعطيته " فالعمر مما أعطاه الله هذا وجه للمهلب .

وقال الإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد الشافعي القسطلاني في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري على هذا الحديث (٣٤٧/١٣) :

كأن المؤلف أشار في الترجمة لما في بعض طريق الحديث عن أنس قال : قالت أم سليم ــ وهي أم أنس ــ يا رسول الله : خويدمك ألا تدعو له ؟ فقال " **اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته واغفر له** " رواه البخاري في الأدب المفرد وفيه دلالة على إباحة الاستكثار من المال والولد والعيال لكن إذا لم يشغله ذلك عن الله والقيام بحقوقه قال تعالى { **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** } ولا فتنة أعظم من شغلهم العبد عن القيام بحقوق المولى ولولا دعوته صلى الله عليه وسلم لأنس لخيف عليه .

وقال بدر الدين العيني في عمدة القاري لشرح صحيح البخاري (٣٦٥/١٨) :

مطابقة الترجمة ظاهرة فإن قلت : من أين الظهور وفي الترجمة ذكر طول العمر وليس في الحديث ذلك ؟

قلت : قد ذكرنا هنا معنى أن قوله " **بارك له فيما أعطيته** " يدل على ذلك لأن الدعاء ببركة ما أعطي يشمل طول العمر لأنه من جملة المعطى . آه

قال الإمام الألباني رحمه الله في الصحيحة (٩٤/٦) :

٢٥٤ــ (اللهم أكثر ماله وولده وأطل عمره واغفر له ... يعني أنساً رضي الله عنه) ــ صحح الشيخ رحمه الله هذا الحديث في الأدب المفرد بلفظ " وأطل حياته " ٥٠٩/٦٥٣ الباب ٢٥٣ ــ

قال رحمه الله : أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٠٤٨/٣) : حدثنا أبو الربيع الزهراني نا حماد بن زيد عن سنان بن ربيعة عن أنس بن مالك قال انطلقت بي أمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، خويدمك فادع الله له فقال : فذكره ... وقال أنس : وطال عمري حتى استحييت من أهلي وأينعت ثماري وأما الرابعة يعني المغفرة ..

قلت ــ أي الألباني ــ : وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الشيخين غير سنان بن ربيعة فأخرج له البخاري مقرونا بغيره وقال الحافظ : صدوق فيه لين .

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٥٣) من طريق سعيد بن زيد عن سنان نحوه وفيه أنه قال : " **فدعا لي بثلاث فدفنت مائة وثلاثة وإن ثمرتي لتطعم في السنة مرتين وطالت حياتي حتى استحييت من الناس وأرجو المغفرة** " وترجم له البخاري في الأدب بـــ : "**باب من دعا بطول العمر**" وأصله في صحيح البخاري (١٢/١١- فتح) ومسلم (١٢٨/٢) من طريقين آخرين عن أنس دون ذكر العمر وقد وهم مخرج الأدب المفرد حيث عزاه لمسلم دون البخاري ودون أن ينبه على أن العمر ليس عندهما وتقدم تخريجه برقم ١٤٠ و ١٤١ ومع ذلك فقد ترجم له البخاري في الصحيح بقوله " باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله " فذكر الحافظ أن البخاري أشار بذلك إلى طريق سنان هذه .

وقال رحمه الله في صحيح الأدب المفرد (ص ٣١٠) : عندما قال البخاري : باب كيف يدعو للذمي ؟ وساق الحديث عن عقبة بن عامر الجهني : أنه مر برجل هيئته هيئة مسلم فسلم فرد عليه : وعليك ورحمة الله وبركاته فقال له الغلام : إنه نصراني !! فقام عقبة فتبعه حتى أدركه فقال : إن رحمة الله وبركاته على المؤمنين ، لكن أطال الله حياتك وأكثر مالك وولدك "

قال الألباني رحمه الله : في هذا الأثر إشارة من هذا الصحابي الجليل إلى جواز الدعاء بطول العمر ولو للكافر فللمسلم أولى (انظر الحديث ٤١/ ٥٦) ولكن لا بد أن يلاحظ الداعي أن لا يكون الكافر عدواً للمسلمين ويترشح منه جواز تعزية مثله بما في هذا الأثر فخذها منا فائدة تذكر .

واستدل المانعون من الدعاء بطول العمر بالحديث التالي وهو أبرز ادلتهم :

قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب (واللفظ لأبي بكر) قالا حدثنا وكيع عن مسعر عن علقمة بن مرثد عن المغيرة بن عبد الله اليشكري عن المعرور بن سويد عن عبد الله قال : قالت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم " **قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودات وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئا قبل حله أو يؤخر شيئا عن حله ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرا وأفضل** "

استدل بعض أهل العلم بهذا الحديث على أنه لا يجوز الدعاء بطول العمر لأن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أم حبيبة رضي الله عنها ذلك وسنعرض بعض كلام أهل العلم على هذا الحديث وكيف أجابوا عن النهي الوارد فيه :

وأكثر من اطلعت عليه من شراح الحديث فسر لفظة الإمتاع بأنها طول العمر وطول الحياة وذكر موسى شاهين في فتح المنعم في شرح صحيح مسلم فائدة على ذلك يقول (١٠/١٩٣) : الامتاع يشمل كل ذلك وإن لم تتطلبه تفصيلاً ومضروبة أي محددة .

وقال محمد تقي العثماني في فتح الملهم بشرح مسلم (٥ـ٦/ ٢٥٧) :

قوله " اللهم أمتعني بزوجي .... الحديث : تريد الدعاء بطول عمرهم وزيادة في حياتهم .

قوله" لن يعجل الله شيئاً قبل حله " المراد : أنه لا يتقدم شيء على أجله المضروب في قضاء الله تعالى .

قوله " قد سألت الله لآجال مضروبة ... الحديث : حاصله أن القضاء المبرم الذي هو عبارة عن علم الله تعالى بما سيكون لا يزاد فيه وشيء ولا ينقص أما التقدير المعلق الذي هو عبارة عن الكتابة في اللوح المحفوظ أو عن توكيل الملك بأمر من الأمور فقد يتغير بالدعاء أو باختيار بعض الأسباب .

قال النووي رحمه الله في شرحه على مسلم (١٥ـ١٦ / ٤٢٩) بعد أن بوب عليه بقوله :

" باب أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر"

قال : هذا الحديث صريح في أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما قدره الله تعالى وعلمه في الأزل فيستحيل زيادتها ونقصها حقيقة عن ذلك وأما ما ورد في حديث صلة الرحم أنها تزيد العمر ونظائره فقد سبق تأويله في باس صلة الأرحام ... **ثم قال رحمه الله : فإن قيل ما الحكمة في نهيها عن الدعاء بالزيادة في الأجل وهو مفروغ منه وندبها إلى الدعاء بالاستعاذة من العذاب وهو مفروغ منه أيضاً كالأجل ؟**

الجواب : الجميع مفروغ منه لكن الدعاء بالنجاة من عذاب النار ومن عذاب القبر ونحوهما عبادة وقد أمر الشرع بالعبادات فقيل : أفلا نتكل على كتابنا ؟ وما سبق لنا من القدر ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

وأما الدعاء بطول الأجل فليس عبادة وكما لا يحسن ترك الصلاة والصوم والذكر اتكالاً على القدر فكذا الدعاء بالنجاة من النار ونحوه والله أعلم . آه

وفي شرح الأبيّ والسنوسي على صحيح مسلم (٩/٣٩) :

قال الأبيّ نقلاً عن المازري : الحديث نص في أن الأرزاق والآجال لا تزيد ولا تنقص فمن علم الله أنه يموت سنة خمسمائة يستحيل أن يموت قبلها أو بعدها لأن العلم معرفة المعلوم على ماهو به فلو مات قبلها أو بعدها لم يكن الله علم بذلك الأجل على ما هو به وانقلب العلم جهلاً والجهل على الله محال ، فإذا كان نصاً في أن الآجال لا تزيد ولا تنقص فلماذا نص حديث " صلة الرحم تزيد في العمر " **الجواب** :

الأجل الذي عند الله سبحانه وتعالى وفي علمه لا يتغير بزيادة ولا نقص لما تقدم وأما علم الملك فإنه حادث والحادث يقبل التغيير بالزيادة والنقص ويجوز أن يأمر الله بأجل أو يكتب له في اللوح المحفوظ ثم يزيد فيه بسبب الصلة حتى يقع الموت على ما علم الله سبحانه في الأزل .

قلت _ أي الأبيّ _ : الجواب بهذا لا يرفع السؤال لأن المراد بالزيادة في العمر حقيقة وعلى هذا فليست بحقيقة وإنما الجواب والله أعلم : أن يكون كتب أجله إن لم يصل رحمه كذا وإن وصل فأجله كذا فإذا وصل رحمه بلغ الأجل الأكثر والله سبحانه أي ذلك يفعل .

وقال السنوسي (٣٩/٩) :

إن قيل صرفها عن الدعاء بالزيادة في العمر لأنه قد فرغ منه وندبها إلى الدعاء بالمعافاة من عذاب القبر والنار وهو مفروغ منه قبل الدعاء ..... **ثم قال** : وحاصل جوابه صلى الله عليه وسلم : أنه لم ينهها عن الدعاء بالزيادة في العمر حتى لا يكون ذلك مناقضاً لإرشادها إلى الدعاء بالمعافاة وإنما أرشدها **الأفضل** .

وقال الأبيّ (٣٩/٩) :

وهذا الاعتراض من نحو ما تقدم مثل قول من قال " أفلا ندع العمل ؟ " حين أخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى قضى بالسعادة والشقاء مع أنه صلى الله عليه وسلم إنما أرشدها إلى الأفضل ولا شك أن الدعاء بالمعافاة من النار أفضل من الدعاء بالزيادة في العمر .

قال الإمام الحافظ أبي العباس أحمد القرطبي في المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٦٨١/٦) :

أورد بعض علمائنا على هذا سؤالاً فقال : ما معنى صرفه لها عن الدعاء بطول الأجل وحضّه لها على العياذ من عذاب القبر وكل ذلك مقدر لا يدفعه أحد ولا يرده سبب ؟

الجواب :

إنه صلى الله عليه وسلم لم ينهها عن الأول وإنما أرشدها إلى ما هو أولى وأفضل ووجه أن الثاني أولى وأفضل أنه قيام بعبادة الاستعاذة من عذاب النار والقبر فغنه قد تعبدنا بها في غير ما حديث و لم يتعبدنا بشيء من القسم الذي دعت هي به فافترقا وأيضاً : فإن التعوذ من عذاب القبر والنار تذكير بهما فيخافهما المؤمن فيحذرهما ويتقيهما فيجعل من المتقين الفائزين بخيري الدنيا والآخرة . آه

قال تقي العثماني عن ما ذهب إليه النووي وغيره في التفريق بين نهيه صلى الله عليه وسلم أن الدعاء بالاستعاذة من عذاب القبر وقال أنه عبادة بخلاف الدعاء بطول الأجل قال (٥ـ٦/٢٥٧) :

قلت : فيه نظر !! لأن الدعاء عبادة في كل حال حتى وإن كان للأغراض الدنيوية ولكن الأحسن أن يقال :

الوقاية من عذاب النار مقصود بنفسه بخلاف طول الأجل أو يقال : إن الدعاء للأغراض الأخروية أفضل لأن فيه أجراً باعتبار فعل الدعاء وباعتبار المدعو به جميعاً بخلاف الدعاء للأغراض الدنيوية فإنه موجب للأجر باعتبار فعل الدعاء فقط لا باعتبار المدعو به ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم ينهها عن الدعاء بطول الأجل وإنما ذكر أن الدعاء للوقاية من العذاب خير وأفضل . آه .

وقال ابن بطال في شرح على البخاري عند حديث أنس ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم له (١٠/١٠٦) :

فإن قيل : فما معنى دعائه له بطول العمر وقد علم عليه الصلاة والسلام أن الآجال لا يزاد فيها ولا ينقص منها على ما كتب في بطن أمه ؟

قيل : معنى ذلك والله أعلم أن تعالى يكتب أجل عبده إن أطاع الله واتقاه فيكون عمره مدة كذا فإن لم يطع الله وعصاه كان أجله أقل منها ويدل على صحة ذلك قوله تعالى : **{ ويؤخركم إلى أجل مسمى }** يريد أجلاً قد قضى به لكن إن أطعتم فإن عصيتم لم يؤخركم إلى ذلك الأجل وكل قد سبق في علم الله مقدار أجله على ما يكون من فعله إلى آخر كلامه رحمه الله .

وسئل الإمام ابن باز في الفتاوى (٨/٤٢٥) :

هل يجوز الدعاء بطول العمر أم أن العمر مقدر ولا فائدة من الدعاء بطوله ؟

قال رحمه الله : لا حرج في ذلك ، والأفضل أن يقيده بما ينفع المدعو له ، مثل أن يقول : أطال الله عمرك في طاعة الله أو في الخير أو فيما يرضي الله ، ومعلوم أن الدعاء لا يخالف القدر بل هو من القدر كالأدوية والرقى ونحو ذلك . وكل الأسباب التي لا تخالف شرع الله فهي كلها من القدر وقدر الله ماض في حق المريض والصحيح ومن دعي له ومن لم يدع له لكن الله سبحانه أمر بالأسباب المشروعة والمباحة ورتب عليها ما يشاء سبحانه وكل ذلك من قدر الله والله ولي التوفيق .

وسئل العلامة ابن عثيمين في الفتاوى (٣/٧١) :

ما حكم قول : " أطال الله بقاءك " طال عمرك ؟

قال رحمه الله : لا ينبغي القول بطول البقاء لأن طول البقاء قد يكون خيراً وقد يكون شراً فإن شر الناس من طال عمره وساء عمله وعلى هذا فلو قال : أطال الله بقاءك على طاعته ونحوه فلا بأس بذلك .

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في تصحيح الدعاء ص ٣٢٦ : كره الإمام أحمد هذا الدعاء "أبقاك الله وقال : هذا شيء قد فرغ منه . وفي معناه ما بعده ، والصحيح عدم الكراهة لورود الثاني : (**أطال الله بقاءك**) بالأثر عن عمر رضي الله عنه ومن ترك هذه الألفاظ على سبيل التوقي فذاك والله أعلم .

خلاصة البحث :

أنه لا حرج بالدعاء بطول العمر لحديث أنس ، وأنه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم لم ينه أم حبيبة رضي الله عنها عن الدعاء بطول الأجل وإنما أرشدها إلى الأفضل والأفضل أن يقيّد هذا الدعاء بالطاعة للحديث الذي صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٨٣٦) عن عبد الله بن بسر المازني قال : جاء أعرابيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله ! أي الناس خير ؟ قال " **طوبى لمن طال عمره ، وحسن عمله** .... **الحديث** ولأن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أي الناس خير ؟ **قال " من طال عمره وحسن عمله "** قال : فأي الناس شر ؟ قال " **من طال عمره وساء عمله** " رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٣٠) ولما رواه أحمد (١/١٣٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة(١٠٦٧٤) وحسنه الألباني في الصحيحة (٦٥٤)

من حديث عبد الله بن شداد : أن نفراً من بني عُذرة ثلاثة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم (**من يكفينيهم** ؟) قال طلحة : أنا ، قال : فكانوا عند طلحة فبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثاً يخرج فيه أحدهم فاستشهد ، قال : ثم بعث آخر ، فخرج فيهم أحدهم فاستشهد ، قال : ثم مات الثالث على فراشه . قال طلحة : فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة ، فرأيت الميت على فراشه أمامهم ، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم ، قال : فدخلني من ذلك ، قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**ما أنكرت من ذلك ، ليس أفضل عند الله من مؤمن يُعمّر في الإسلام يكثر تكبيره وتسبيحه وتهليله وتحميده**) .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

بندر بن فهد بن عيد الايداء

المراجع :

١. **تفسير القرآن العظيم لابن كثير**
٢. **تفسير فتح القدير للشوكاني**
٣. **الجامع لأحكام القرآن للقرطبي**
٤. **تيسير الكريم المنان للسعدي**
٥. **صحيح الإمام البخاري**
٦. **صحيح الإمام مسلم**
٧. **فتح الباري لشرح صحيح البخاري لابن حجر**
٨. **شرح صحيح البخاري لابن بطال**
٩. **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني**
١٠. **عمدة القاري لشرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني**
١١. **شرح صحيح مسلم للنووي**
١٢. **المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم لأبي العباس القرطبي**

١٣. شرح مسلم للإمامين محمد خليفة الوشتاني الأبيّ ومحمد السنوسي
١٤. فتح الملهم بشرح مسلم لمحمد تقي العثماني
١٥. فتح المنعم في شرح مسلم لموسى شاهين
١٦. السلسلة الصحيحة للألباني
١٧. صحيح الأدب المفرد للألباني
١٨. إفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه للسيوطي وبتحقيق أسامة عبد العليم آل عطوة .
١٩. مجموع الفتاوى للإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله
٢٠. مجموع الفتاوى للإمام محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله